«أم مازن» ما قصّرت!

عامر محمد البشير [1]

في منتصف ليلة شتاءٍ شديدة البرودة من شهر شباط من العام ١٩٧٧، صحوتُ ولم يتجاوز عمري عَشْر سنواتٍ فزِعًا، وقد اختلطت أصوات الرياح بأصوات جمهرةٍ خارج باب الغرفة التي أنام فيها أنا وشقيقي التوأم صلاح الدين، تعلو وتخفُت، استغربت وجودها في منزلنا في ساعةٍ مُتأخرةٍ من الليل، تخلّلَها نحيبُ سيداتٍ وصراخ رجالٍ، منهم من أجهش بالبكاء. انتظرتُ طويلًا قبل أن أتجرّأ على الخروج من باب غرفتي، وقد غادر النّعاس جفوني، وبعد أن استجمعتُ قواي لمواجهة ما لا تُحمدُ مواجهته، وجدت منزلنا قد عجَّ بالعشرات لكثيرين لم أعرفهم، وقد أدمت الدموع عيون بعضهم، وارتجفت شفاهُ آخرين، ونظرات ذهول لمن تبقّى منهم، قلّةٌ قليلةٌ عرفتهم ولم أجد ما يُبرّر وجودهم على غير العادة في ساعةٍ مُتأخرةٍ من تلك الليلة إلا سببٌ واحدٌ هو أنَّ هناك أمرًا جلَلًا قد حصل سيُغيّرُ حياتي وحياة أُسرتنا، وسيقلِبها رأسًا على عقب لسنواتٍ تتبع. مُنذ ذلك اليوم ما زلتُ أذكرُ حتّى هذه اللحظة، وما زال المشهد حاضرًا بذاكرتي، عيون والدتي تتبَعني وتلاحقني أينما ذهبتُ، وقد ملأها الكثير من الذهول، وعلامات استفهام، وقلق، وتمتمة شفاه، لم أتمّكن من فهم ما كانت تقوله، علَّها كانت تُحدِّث نفسَها، أو تخاطبني، ولم أتمكّن من سماع ما إذا كانت توجّهُه لي؛ بسبب ارتفاع أصوات الحضور، وأجزمُ أنّها كانت عهودًا التزمت بها، أو رسائلَ تطمينٍ لي وشقيقي التوأم، بأنّ الأمور ستكون على ما يُرام، وأشهدُ أنّها قد بَرّت بها جميعها، ولم تخلف يومًا عهدًا أو التزامًا قطعتهُ على نفسِها، وأؤكّد أنّها كانت آخر مرّةٍ

(1) نائب أمين عمان (2006-2011)

شهدتها في حالة ضياعٍ أو فقدانٍ للتوازن، ولا أذكر بَعدها أنها كانت لا تعلم ما هو المطلوب منها، أو إلى أين تتّجه البوصلة، أو خانتها مهارات الإبحار بأُسرتنا إلى شاطئ الأمان، بالرّغمِ من فداحة الخسارة، وحسرة الفقدان، لوفاة الوالد، اللذينِ لازماها لعقودٍ طويلة.

ما إن مرّت أيام العزاء حتّى بدأت حياتنا بالانتظام، وعاد ثلاثةٌ من إخوتي، وانتظموا في دراستهم الجامعية خارج الأردن، وكذلك من تبقّى منّا على مقاعد الدراسة الابتدائية والثانوية. ولا أذكر أنّ والدتي غادرت المنزل قط، وذلك لفترة زمنيّة طويلة زادت على عام، وقد توشّحت بالسّواد، ليحلَّ محلّه اللون الرماديّ بعد عامين، وما زلتُ أذكر صوت المُسجّل الذي لم يخلُ يومًا في منزلنا من تلاوةٍ للقرآن الكريم، ولأكثر من عام، فقد كان ربيع القلوب، ونور الصّدور، هدىً ورحمةً، بصوت المُقرئ المُحبب لقلبها، الذي كان يخاطب وجدانَها آناء الليّل وأطراف النهار، وأذكر حينها أنّنا نِلنَا من عطفها وحنانها ورعايتها واهتمامها ما يخفّفُ من فداحة المصيبة، ويُعوّض فقدان الأب، ويطوي ما مررنا به من محنةٍ استثنائية.

هذا كان حدثًا فاصلًا في حياتي، كما كان لأُسرتنا، فقد كانت الحياة مُستقرّةً ومنتظمة قبْلَهُ، وما إن فقدت ربّانها وعنصر استقرارها، تحمّلت الوالدة المسؤوليّة، وكانت خير من تحمّل، فعضّت على الأحزان وارتقت فوق الجراح، وأخردت من قسوة التجربة سكينة، ومن التحدّيات فرصًا، ومن المأساة طمأنينة، ولا أذكر يومًا قضيةً أو مُعضلةً إلا ووجدت لها الحلّ.

لم تكن تلك التراجيديا الوحيدة في حياتها التي وُصفت بالقاسية، ابتداءً بفقدانها الأب في طفولتها، وفقدان الشقيق القرين الذي يكبرها مُباشرةً في صباها، وفقدان الزوج في مقتبل عمرها وشبابها، وتركها وحيدةً تتحمّل مسؤوليّة أسرةٍ من ستّة أبناء، أكبرهم في التاسعة عشرة من عمره، وآخرها في شيخوختها قبل أقلّ من عام، محنة فقدان بِكرها، شقيقي الأكبر مازن رحمه الله.

سيرة حياتها ملحمةُ تضحيةٍ ونبع عطاء، عرفها كلُّ من عاصرها، وخَبِرها كلُّ من تعامل معها، وقد شكّلت نموذجًا يُظهر لنا كيف يكون الإيمانُ بالقدر؛ ليتخذ من حياتها قدوةً وعبرة، ناهيكم عما غرستْه فينا من أهميّة العلم والالتزام بالعمل، وأنّ مردوده المعنويّ أهمّ من المادّي، وأن يكون ذا رسالة وقناعة، وأنّ التقوى تجنّب الهلاك، والإيمان بأنّ اللهَ هو المُنجي، وبالأمل تستقيم الحياة، وأنّ الدماء لا ترخص إلا للأوطان، وأنّ ما قدّمته في حياتها للعمل الاجتماعي والإنساني التطوّعي، وللمرضى النفسيين وللمُسنين المتوحّدين ومنحدري الصّحة، والتزامها بالجمعيات والمراكز المتخصصة المُستدامة، والرائدة في رعاية المرضى والعجزة والمُسنّين.. ليس إلا محطّة من محطات عطائها التي فجّرتها المحن وأمضت عمرها وهي تسعى وتضحّي من أجل قناعاتها، ولم تبتغِ منها غير مرضاة الله، وما يمليه عليها ضميرها.

سأتناولُ جانبًا آخر هو دور «هيفاء البشير» في تجربتها في العمل البلدي، ومشاركتها في المجلس الوطني الاستشاري، ليس من وجهة نظر الابن، وإنما من وجهة نظر الخبير الذي مارس العمل البلدي، مُدّة ثماني سنوات، كرئيسٍ مُنتخب للّجنة المحليّة لمنطقة تلاع العلي، وتخلّلها العمل ستّ سنوات كنائبٍ لأمين عمّان، والمُطّلع على أنظمة الأمانة الداخلية وتشريعاتها النّاظمة، وأيضًا كعضوٍ مُنتخب في المجلسِ النيابيّ السابع عشر عن دائرة عمّان الثالثة، وكرئيسٍ للجنة النّقل والخدمات العّامة، مطبخ التشريع والرّقابة على عمل الحكومات لمدّة أربع سنوات، وأضيف:

لقد شاركت هيفاء البشير في مجلس أمانة عمّان ثماني سنوات من العام 1986 حتّى العام 1994، بدورتين مُتتاليتين بالتعيين، بعد أن عُيّنت في العام 1980 واحدةً من تسعِة أعضاء، كأوّل امرأة، والوحيدة التي تشارك في الحُكمِ المحليّ، فقد عاصرت عمّان إبّان أمانة العاصمة، لتشهَدَ لاحقًا انضمام مجموعةٍ من البلديات في مُحيط العاصمة ضمن ائتلاف مناطق عمّان، في ما تُسمّى اليوم أمانة عمّان الكبرى، التي انتقلت فيها عمّان من قرية

كبيرة إلى «متروبوليتان»، يضمُّ مجموعةً من المناطق يخطط لها مركزيًّا، وتدار عملياتها بالمناطق، فشاركت بعددٍ من اللجان المركزية، مثل لجان الحدائق والتسمية والترقيم وغيرها، وساهمت بتسمية مجموعةٍ من الشوارع لأعلامٍ من الأردنيّات، كرائداتٍ ساهمْنَ في نشأة الأردنّ وتقدّمه في قطاعاتٍ مُختلفة، أمثال عندليب العمد، ويسرى صلاح، وإملي بشارات، وغيرهنّ الكثير الكثير؛ إصرارًا منها وعرفانًا وتقديرًا لدور المرأة كرائدة ومشاركة في الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية.

كما أنّ هيفاء البشير، شاركت في عمل اللجان المحليّة في كلِّ مناطق العبدلي ورأس العين وغيرها من لجان المناطق، وداومت على حضور اجتماعاتٍ أسبوعية لقرارات ترخيص أبنية ومِهَن، والمصادقة على مُخططاتٍ تنظيمية التزمت فيها بمُتطلبات مجتمعاتها المحليّة، تبعًا لخصوصيّة كلّ منطقةٍ على حده تحقيقًا لحاجاتها التنموية.

كما شاركت هيفاء البشير في عضويّة المجلس الوطنيّ الاستشاري في نسخته الثالثة من عام 1982-1984، وضمَّ في عضويته 75 عضوًا، من ضمنهم أربع سيداتٍ، كانت هيفاء البشير إحداهنّ، ويجدر بالذكر أنّ المجلس الوطنيَّ الاستشاري لم يكن بديلًا عن الحياة البرلمانية الانتخابية التي دَرجَ عليها الأردن، فأعضاؤه جاؤوا عن طريق التعيين وليس عن طريق الانتخاب، ولم يكن لهم الحقُّ في استجواب الوزراء، أو طرح الثقة بالحكومة أو بأحدٍ من الوزراء، بل مهمّتهم الرئيسية سدُّ الفراغ الذي نشأ عن تجميد النشاط البرلمانيّ الانتخابي، حين صدر قرار الاعتراف بمنظّمة التحرير الفلسطينية كممثّلٍ شرعيٍّ ووحيد للشعب الفلسطيني، نتاج انعقاد مؤتمر القمة في الرّباط عام 1974، وكان من إفرازات القرار إجراء تعديل على الدستور الأردنيّ، يُعطي الملِكَ الحقَّ بتأجيل الانتخابات النيابية بشكلٍ مطلق، وتبعَ إجراء التعديل تعليق الحياة النيابية في الأردن.

لقد أثبتت هيفاء البشير من خلال تجربتها في المجلس الوطني الاستشاري قدرَتَها على التواصل مع المواطنين، وعلى طرح قناعاتها بجرأة، والمساهمة في الحراك التشريعي،

والاحتكاك المباشر بالواقع، ومعرفة المشاكل الحقيقية كقاعدة للانطلاق للإصلاح والنهوض والتقدّم، واستطاعت أن تطالب بحقوق المرأة والفئات المهمشة، وأثبتت أنها على مُستوىً عالٍ من الثقافة والمعرفة، وبرهنت أنّ مشاركة المرأة إلى جانب الرجل في ظلّ شراكةٍ تكامليّةٍ تبني الوطن ومؤسساته.

كانت الوالدة بمثابةِ هديّة السّماءلأسرتنا؛ لأنّهاعرفت كيف تُنشئ أسرةً مُتحابّةً ومُتعاونة.. تجرّأت لبيع الأُصول والمصاغ، وعرفت كيف تستثمره في التعليم العالي لأبنائها، وهي على درايةٍ بكيفيّة إنشاء مشاريع اجتماعية ذات أبعادٍ إنسانية، وكيف توفّر لها الاستدامة. وهي تعلم متى تتراجع عن الموقع الأوّل في المؤسسات التي أسَّستها لصالح دماءٍ جديدةٍ شابّة، مثلما تعلم علمَ اليقين أنّ «اللُّقم تدفع النّقم»، وأنّ الله خير الحافظين.. وأشهدُ أنّ أبانا أحسنَ الاختيار.